يُبْدِيها و لا يَبْتَدِيها

بقلم : أحد عباد الله

obeikan.com

أوّل أمر الفقير أنه كان في ضيقٍ شديد يمكرُ به أهلُ شرٍّ، ويكيدون له كيدًا لم يشهد قبله مثله في حياته، وقد أوشكوا على أن يدخلوه السجن، فرأى رؤيا أنه يعوم في البحر -وهو على وجه الحقيقة لا يجيد السباحة-يعوم ويسمع خلفه صوتَ طلقات رصاصٍ وجلبة، وأصوات «سارينة» الشرطة، وقد أيقن أنهم مدركوه لا محالة، فرأى رجلاً يسبح إلى جواره من جهة اليمين، وقد قال له: اتبعني، ولم يرَ وجه ذلك الرجل، فقال له الفقير: لا تحاول، فإنهم مدركونا لا محالة، فقال له الرجل في حسمٍ: اتبعني، وسبح أمامه، فسبح الفقير خلفه، وهو لا يصدق أنه بإمكانهما النجاة، ولم يسبحا مسافة مئة متر أو يزيد، إلا وقد وجدا سفينةً، مثبّتة إلى قاع البحر، بأعمدة خرسانية، أصل الأعمدة في قاع البحر وبقيتها ممتدة داخل جسد السفينة، فنظر الفقير، فوجد الرجل الذي يسبح أمامه قد توقّف وأمسك بمقبض، تمتد منه سلسلة مربوطة بمقدمة السفينة، وسلسلة أخرى مربوطة بمؤخرة السفينة، وقد حرّك ذراعه التي يقبض بيدها على المقبض الموصول بالسلاسل، في حركة نصف دائرية، إلى جهة اليمين بقوة، فانخلعت مقدمة السفينة من الأعمدة الخرسانية التي تثبتها، وحرّك ذراعه بالقوة ذاتها جهة اليسار فانخلعت مؤخرة السفينة، وبذلك صارت السفينة جاهزة للإبحار، وانتهت الرؤيا، وقد فرّج الله عن الفقير بعدها بأن أعانه على سلوك طريقه، ويسر له أمره فيه، كما حمل عنه عبء محاربة أعدائه، وهو أمرٌ يطول شرحه، وتكثر تفاصيله!

ولما مضى الأمر، وفي شيء من وساوس النفس، شعر الفقير بأن ما حدث له في حياته لم يكن ليحدث لو أنه أخطأ أخطاء جسيمة أدّت به إلى ما هو فيه، وأنه الملوم الأول في كل ما حدث، ثم كان أن سافر إلى القاهرة، ونزل بشارع كلوت بك في أحد فنادقه الرخيصة، وكان يجلس على مقهى من المقاهي، كل صباح ليتناول مشروبًا وإفطارًا يحضره من عربة فول قريبة، وفي تلك الأثناء ظل ليومين يرى رجلاً يجلس على مقربة منه، ملامحه كملامح الفقير، جنوبية، يرتدي عمة كبيرة وجلبابًا فضفاضًا، ووقع في خاطر الفقير أن ذلك الرجل لديه رسالة يحملها إليه، لكن لا سبيل إلى اقتحام خلوة الرجل على المقهى، وسؤاله عن رسالة يتخيلها الفقير، وربما كان أمر الرسالة هذا محض وهم، إلى أن مر يومان، والخاطر لا يفارق الفقير، في اليوم الثالث جلس الفقير بالقرب من الرجل وسأله (من فين يا خال؟)

فأجاب: من إسنا، وأنت؟ من الأقصر، وكلمة تلو أخرى، بدا الكلام عاديًّا ومباشرًا ولا رسائل فيه، حتى حلّت لحظة صمتٍ قصيرة، نظر الرجل فيها أمامه، في شرود وقال (إيييه، يُبْدِيها ولا يَبْتَدِيها) ثم نظر إلى الأرض، وكانت جملة الرجل إشراقةً كُبرى في قلب الفقير، إذ فهمَ أن هذه هي الرسالة، وأن فيها نجاته من شقاء نفسه بإطالة اللوم لها، وأن الله يبدي الحوادث (يظهرها) ولا يبتديها (يبدؤها) أي أنها في سابق علمه، وأنه ليس لأحدنا دخل في مشيئة الله، وأن ما يحدث على أيدينا هو ظهور الحوادث لا خلقها، فلسنا ملومين على ما لم نخلق، وسبحان الله، كانت كلمة الرجل أول أمر الرضا في قلب الفقير.

obeikan.com